قراءة في كتاب: رمضان السويحلي : أحد رموز الجهاد ومحقق النصر في القرضابية

بدون دار نشر، وبدون مكان للنشر – حقوق الطبع محفوظة للمؤلف، 2014، ط1، 368 صفحة. تأليف صلاح الدين عوض السويحلي.

أ.د. عقيل محمد البربار*

يتكون هذا الكتاب من **مقدمة ومن اثني عشر** فصلا **وخاتمة**، ولأنه كتاب مهم فليسمح لي القارئ بأن أذهب إلى بعض التفاصيل. تأتي أهمية الكتاب من عدة جوانب **أولها:** صلة القرابة التي تربط المؤلف بالمجاهد رمضان السويحلي. وثانيها: المدة التي قضاها المؤلف يبحث ويجمع المعلومات عنه، بدءا من مشروع التّخرج الذي تقدم به في 1969م، وعنوانه "رمضان السويحلي" حياة وجهاداً(ص7) والذي نال إعجاب د. مدرس مادة **تاريخ ليبيا الحديث** في قسم التاريخ بكلية الآداب والتربية في الجامعة الليبية، إلى طباعة المشروع في كتاب عام 1974، ثم بحثه في الأرشيف الإنجليزي في أثناء هجرته الطويلة كما يقول المؤلف في بريطانيا. أما **ثالث** تلك الجوانب: فهو مراجعة مخطوطة الكتاب من أساتذة ومن مؤرخين مثل أ. محمد مصطفى الغوج، و الأساتذة: عبد الله الكبير، وأحمد محمد بن نصر، وعبد الله عمر القاضي. الخلاصة أن الكتاب جاء ثمرة جهد كبير استغرق مدة طويلة، اعتمد على وثائق إنجليزية وليبية وإيطالية وعثمانية، وعلى رواية شفوية، ومن ثم لا بد أن يكون قد أضاف شيئاً مفيداً للقارئ.

يبدأ المؤلف كتابه بمقدمة (ص7–10) يحّدد فيها الأسباب التي دفعته إلى التأليف في رمضان السويحلي، فهو يرى أن "تاريخ جهاد أجدادنا ضد الغزو الإيطالي لم يكتب على حقيقته حتى الآن..." وقد لاحظ المؤلف ذلك الأمر منذ ستينيات القرن الماضي

* جامعة طرابلس.

عندما كان طالبا في الجامعة، الأمر الذي جعله يكتب بحث تخرجه في العام **1969م** عن رمضان السويحلي. وعندما طعن معمر القذافي في رمضان السويحلي واصفا إياه بالخيانة والانحياز إلى الإيطاليين في خطاب له في **1974** قام المؤلف بطباعة مشروعه في كتاب وأنزله إلى السوق.

انتظر المؤلف كثيرا أن يتولى مؤرخون الكتابة عن رمضان، لكن ذلك لم يحدث – على حد قوله– فانبرى للمهمة، وأصدر هذا الكتاب بعد أن أتيحت له فرصاً أفضل للبحث. سنعود إلى هذه النقاط بعد ذلك، لكن نكتفي الآن بعرض محتوى الكتاب حتى يلم القاري بما احتواه من أراء وأفكار.

بعد المقدمة ينتقل المؤلف إلى **الفصل الأول** (رمضان السويحلي : نشأته وشخصيته (ص11–23) ويشير إلى أن والد رمضان كان شجاعا مقداما غير مبال بالسلطة العثمانية مستدلاً على ذلك بدخوله في خصام ضد قريبه، لأن هذا القريب اشتكى قريبا ثالثا إلى آغا زاوية المحجوب (العثماني).هذا أمر مقبول، فالفلاحون غير محبين للسلطة المركزية لأنها غالبا ما تمثل عنصر سلب ونهب في صيغة ضرائب، أو تجنيد إجباري أو إكرامات اشتهرت السلطات الحكومية التي برزت في بلادنا على ممارستها. وقد ورث رمضان السويحلي (1881–1920) عن والده، وعن البيئة الفلاحية التي عاش فيها، تلك الصفات النبيلة من شجاعة وإقدام حتى جعله يدخل في صراع مع بعض الأفراد "المستهترين المرتبطين بالسلطة " ولم يكونوا يعيرون تلك القيم أهمية تذكر.

في **الفصل الثاني** (دور رمضان في الفترة ما بين 1911–1912) (ص25–75) يبيّن المؤلف كيف أن رمضان أسهم مساهمة رفيعة في القتال ضد القوات الإيطالية الغازية ضمن محلة خرجت من مصراته بقيادة الضابط حسن الشريف المغربي، ومعه أحمد المنقوش قائدا للمجاهدين.. وكان عدد أفرادها 600 رجل. اشتركت المحلة في **معركة الهاني**. استشهد قائد المحلة المنقوش فحل محله رمضان السويحلي بناء على توصية

منه، ودخلت المحلة في معركة عين زارة (1912/1/28) حيث أصيب رمضان بجرح بليغ، فأعيد إلى مصراتة للعلاج. أسهم بعد ذلك في المقاومة ضد حملة إيطاليا لاحتلال مصراتة في **1912/6/15** ثم معارك الزروق (1912/7/8) ومعركة أماطين (1912/7/9) والرميلة، وموقعة الشبيط، ومعركة رأس بوغولة. في هذه الأثناء كانت هناك محادثات سرية بين الدولة العثمانية وإيطاليا انتهت إلى توقيع معاهدة أوشي لوزان في 1912/10/15م التي رفضها فريق من المجاهدين (الباروني، سوف) وقبلها فريق آخر (زعماء المناطق الساحلية) وكانوا على حد قول الشيخ الطاهر الزاوي "الأكثرية المطلقة"،...)

في **الفصل الثالث** : "رمضان من صلح لوزان إلى القرضابية : ص 77–89 " يشير فيه المؤلف إلى "سكون رمضان في هذه الفترة وكان سكونا حكيما "، على حد قول المؤلف، أي أن رمضان لم يشترك مباشرة في المقاومة، وقبل وظيفة مدير ناحية زاوية المحجوب وهي وظيفة أمنية. ويبّرر المؤلف ذلك بقوله إن "السكون لا يعني التسليم ولكنه التّرقب والتّرصد لاغتنام الفرصة " ص77. ويستدل المؤلف على موقف رمضان بأربعة أدلة له على حد قوله : **الأول**، اتصال رمضان بجماعة المجاهدين في سرت عن طريق سالم قصيبات، وهو أحد تجار سرت، **الثاني**، مساهمة رمضان في الجهاد بطريقة سرية عن طريق تشجيع الانضمام إلى مقاتلي منطقة سرت تحت قيادة أحمد التواتي وصالح الأطيوش وإرسال المعونات. **الثالث**، نجح رمضان في عمله السرّي هذا ضد الطليان حتى أن اختلف مسؤولوهم في تقييم مسلكه تجاههم **الرابع**، كان رمضان قد أوعز لجماعة من أتباعه أن تغزو إبله في سرت وتنقلها إلى أحمد التواتي ليؤسس فكرة أن يذهب للحاق بها واستردادها، مع أنه كان يريد من وراء ذلك الاتصال بصالح الأطيوش وأحمد التواتي للتنسيق في الجهاد (ص80)، إنه فصل مهم جدا يتحدث فيه المؤلف عن تفاصيل دقيقة يحتاج إلى إسنادها بمصادر عديدة أكثر مما فعل وألا يترك تلك التفاصيل محل شك.

في الفصل الرابع (معركة القرضابية) **ص 91-128**. يتحدث المؤلف عن المعركة ويعتبرها إنجازا لرمضان دون غيره، ولكنه يؤكد على وجود تنسيق بين رمضان وعبد النبي بلخير في الانقلاب على الطليان الأمر الذي أدى إلى هزيمة الإيطاليين و انتصار المجاهدين. هنا تملأ **النرجسية والمجاملات** محتوى هذا الفصل، فالمؤلف يقول "وافق الاثنان (رمضان وعبد النبي)" على فكرة الانضمام إلى جماعة أحمد التواتي، والمضي سوياً في سبيل تخليص البلاد من كابوس الاستعمار الإيطالي... حتى فرق الشيطان وأعوان إيطاليا بينهما بالدسائس والنميمة... " (ص87) لقد سكت المؤلف عن أولئك الأعوان، وتلك الدسائس. أما عن النرجسية فتتضح في إعطاء رمضان الحق كاملا في الانتصار في القرضابية واختفى في نصه الآخرون الذين كانوا محط حديثه، والذين كان رمضان قد نسق معهم، أو اعتمد عليهم في تنفيذ خطته "خطة رمضان (ص106)"، هنا تظهر أمور لأول مرة في الكتاب مثل إضفاء الألقاب على رمضان (ص 114) وتظهر أن انتقام الإيطاليين وقع على أبناء مصراتة حتى أن سجل المؤلف بعض المشاركين من أبناء مصراتة في معركة القرضابية، ولم يسجل أحداً من الآخرين (ص107-112)، وهو دليل آخر على النرجسية.

في الفصل الخامس (تشكيل رمضان لحكومة مصراته : ص 129-142)، يتحدث المؤلف عن: **أولاً: التقسيمات الإدارية**، التي تتطابق والتسميات العثمانية: متصرف، وأقضية (قائمقامات) وكان عددها (6) هي مصراتة، وزليطن، وسرت، والساحل، وقصر خيار، ومسلاتة، وفي كل قضاء بلدية واحدة يديرها عميد البلدية بمساعدة المجلس البلدي. والجدير بالذكر أن جميع هذه المناصب يعينون من قبل رمضان بطريقة مباشرة، أو منه بطريقة غير مباشرة، ثم نواحي في كل قضاء يشرف عليها مديرون، وأخيرا كان لكل قبيلة شيخ قيل إنه ينتخب من بين أفرادها لرعاية أحوالهم ويتكفل بجمع الإعانات الحربية. ويعتمد هذا الاختيار من قبل قائمقام المنطقة ثم من قبل المتصرف (السويحلي).

ثانياً: النظام القضائي : شمل النظام القضائي عدداً من المحاكم: مجلس العلماء، وقد شكله: رمضان بن تركية، ورمضان بليبلو، وعمر الميساوي، والسنوسي بن عبد العال، وعبد الرحمن بن نصر. كانت مهمة هذا المجلس النظر في القضايا التي تمس أمن الدولة كالتجسس، وأعمال التخريب، وتعرض هذه القضايا من رمضان نفسه، أو من السلطة التنفيذية، كذلك النظر في القضايا التي أصدرت فيها المحكمة الشرعية حكمها ولم ينال هذا الحكم رضى أحد الطرفين ويعتبر حكم المجلس نهائيا.

(أ) المحاكم الشرعية، كانت في كل مدينة من المدن التابعة للحكومة محكمة شرعية تختص بالنظر في ما يسمى الآن بالقضايا الشرعية والمدنية. يمكن أن تستأنف أحكامها أمام المجلس، العلمي (مجلس العلماء) وقد عين الشيخ علي الهمالي والشيخ عبد الله بن موسى أبو حجر والشيخ العربي المغربي رؤساء لمحاكم مصراته وزليطن وسرت على التوالي.

بقيت عدة ملاحظات عن النظام القضائي نوجزها في التالي :

أ. يحكم القاضي وفق الشريعة الإسلامية من كتاب وسنة، ولم يكن هناك قانون وضعي.

ب. احتفظ رمضان لنفسه بحق تعيين القضاة وعزلهم.

ج. ألزم رمضان القضاة بتسجيل ما يصدرون من أحكام في سجلات خاصة، كما ألزمهم بتنظيم دفاتر تحتوي على حاصلات المحكمة وتقديم جدول شهري يتضمن جميع الحاصلات وتسليمها لصندوق المال (ص132-133).

ثالثاً: التنظيم المالي :

تم إنشاء صندوق مالي لحفظ مال الدولة. وقد كانت موارد الدولة تأتي من: 1- الأعشار التي كانت تقدّر عن طريق فريق عمل يتكون من مأمور وكاتب وخرّاص، صحبة مجموعة من الشرطة.2- الإعانات الحربية، وكانت تدفع تطوعاً، كما كانت تفرض من الحكومة على القادرين الذين تمنعهم ظروفهم من القيام بالجهاد بأنفسهم. 3-حاصلات المحاكم الشرعية، وهي رسوم التقاضي أمام المحكمة الشرعية.4-الغنائم المادية التي تسقط في أيدي المجاهدين والجنود من الأعداء.

لا نعرف متوسط المجموع العام لتلك المصادر المالية، لكن لابد أنها كبيرة استدلالاً من مجالات وأوجه الإنفاق، فقد شملت تلك الأخيرة : أ-النفقات الضرورية اللازمة للشئون العسكرية. ب- معاشات الجنود والعساكر والجندرمة (الشرطة). ج- مرتبات ومعاشات جملة المأمورين والمستخدمين المدنيين في الدولة. ولقد خصص رمضان لكل فرد يعمل في الحكومة مرتباً حتى يتفرغ للعمل الحكومي. د- المساعدات الخارجة للجهات الخارجية عن نطاق سلطته المباشرة كالإعانات التي كان يرسلها إلى قائمقام غدامس (ص135-136).

رابعاً: الإدارة العسكرية والأمنية :

شملت حكومة مصراته إدارتين مهمتين، العسكرية (الجيش) والأمنية (الشرطة)، فقد أنشئت في قبيلة الملايطة بالقرب من قصر أحمد مدرسة عسكرية كان عدد الذين التحقوا بها في بداية تكوينها (200) طالب، وتشمل قوائم خريجيها شباباً من مصراتة، وزليطن، والعزيزية، وغريان، والرياينة، والزاوية الغربية، وطرابلس، وسوق الجمعة، والنواحي الأربع، والجبل الغربي، وقماطة. كانت مدة الدراسة بها سنة كاملة، ثم خفضت إلى ستة أشهر، وبلغ عدد الخريجين في الدفعة الأولى (80) خرّيجاً، تولى إداراتها اليوزباشي أمين باشا. أما عن الشرطة فقد عين لإدارتها المجاهد محمد الحداد، لكن المعلومات عنها قليلة.

في الفصل السادس (علاقة رمضان مع الزعماء الليبيين الآخرين) : ص143-169.

يتحدث المؤلف عن علاقة رمضان مع **السنوسيين**، ويقول إنها بدأت حميمية لكن ساءت بعد معركة القرضابية بسبب سعى السنوسية مد سلطانها إلى الغرب، وهو ما رفضه رمضان، و يتحدث عن علاقة رمضان بزعماء ترهونة، وعلاقته بعبد النبي بلخير التي بدأت حميمية، هي الأخرى، وانتهت إلى صراع بين الطرفين كما هو معروف.

ومن علاقة رمضان بالداخل إلى علاقته ببعض الدول، انبرى المؤلف إلى معالجته في **الفصل السابع : علاقة رمضان مع الدول الأخرى، ص171-189.**

كانت علاقة رمضان مع الدولة العثمانية وألمانيا جيدة شابها في البداية صراع خفي حاول العثمانيون فيه احتلال مركز الصدارة لكن رمضان نبههم: "كفى أنتم ضيوفنا ولستم أسيادنا" حققت العلاقات مزايا كبيرة؛ فبالنسبة للعثمانيين والألمان نجحت في أنها حجزت قوات إيطالية كبيرة في شمال أفريقيا معادية لهم أما بالنسبة لرمضان فقد وفرت العلاقة تحسناً في المواصلات، وفي الاتصالات وفي التسليح والدعم عموماً، ثم في نقل المنتجات الزراعية، وتصديرها من ميناء مصراتة إلى ألمانيا، ومنحت المجاهدين إحساساً رائعاً بكسر حصارهم.

وفي الفصل الثامن : رمضان وتحرير مدينة الخمس (ص190-208). يسرد فيه تطويق قوات المجاهدين المدينة، وينعت المؤلف تلك القوات دائما بـ: رجال السويحلي (ص 190،199،200،202) ومجاهدي مصراتة (ص 198) ومجاهدي رمضان السويحلي (ص200) وقوات رمضان (205) ومقاتلي مصراتة (ص206). هذه النرجسية والانكفاء إلى الذات مفاهيم يعج بها الكتاب للأسف، ويمثل عيبه الأساسي.

في الفصل التاسع : تأسيس الجمهورية ودور رمضان فيها، ص(209-241)
هذا فصل مهم من الكتاب بسبب أهمية بروز الجهورية في فترة المقاومة بشكل خاص وفي تاريخ ليبيا الحديث بشكل عام، ويلخص المؤلف عناصر هذه الأحداث في الآتي :

1. "تعود فكرة الجهورية لسليمان الباروني ايده فيها رمضان بحماس (ص211)".
2. "خَانَ" عبد القادر الغناي-الذي عيّن قائداً لجيش الجمهورية- رسالته، ويرى صاحب الكتاب أن واقع الغناي هو إيمانه بضرورة تنفيذ معاهدة مندروس (ص239).
3. أسهم أحمد عمر المنتصر في تحييد الغناي عن الجمهورية.
4. الصراع بين المنتصر، ومحمد فرحات الزاوي جعل الأخير يقوم بدور الغناي "الخياني" – والحديث للمؤلف – بدون شروط لإبعاد المنتصر.
5. نجحت جهود الغناي وفرحات.
6. اتقنت الحكومة الإيطالية سياسة "فرق تسد".

في الفصل العاشر: صلح بنيادم (ص242-373)

يتحدث المؤلف عن العلاقات والتواصل بين الايطاليين والجمهورية الطرابلسية. لقد عيّن كل من أحمد المريض، والهادي كعبار، ومحمد فكيني، والصويعي الخيتوني، وعلى بن تنتوش، في وفد مفاوض للإيطاليين وطلب إليهم ألا يعقدوا اتفاقا إلا يعد التشاور مع رئاسة الجمهورية، اجتمع الوفد في خلة الزيتونة في مارس 1919 ومرة أخرى في مايو 1919. واتفق في الاجتماع الأخير على ما يلي : 1-إعلان وقف القتال.2-الاتفاق على قاعدة أساسية للصلح :

أ- حق منح شعب طرابلس دستورا يخول له مباشرة حقوقه المدنية والسياسية ويعطيه الحق في القيام بجميع واجباته الكبرى كغيره من الشعوب.

ب-اتفق أن يمنح الزعماء ضمانات وامتيازات يخولون بها حقوقا إلى حين تنفيذ الاتفاقية.

وقع ملك ايطاليا على الدستور في 1919/6/1، ووافق عليه الطرفان وصدر الدستور، لكن الإيطاليين تلكأوا في تنفيذه، ويجدر التنويه بظهور حزب الإصلاح الوطني الذي أنيطت رئاسته الفعلية إلى أحمد المريض ورئاسته الشرفية إلى رمضان السويحلي، وقد تضمن برنامج الحزب خمس نقاط انقلها كما وردت (ص270-271).

1- المحافظة على حقوق الطرابلسيين الواردة في القانون وضمان التزام السلطة الايطالية بها. التعجيل بتنفيذ القانون الأساسي، خصوصا ما يتعلق بالإصلاح وما ينص على تدريب الطرابلسيين على حكم أنفسهم حتى يصلوا إلى حريتهم في أقرب وقت.

2- تحقيق التضامن بين العرب والايطاليين على أساس المساواة التامة واتحاد المصالح.

3- نشر التعليم بكل الوسائل مع المحافظة على العادات الإسلامية.

4- بدل العناية لإصلاح الحالة الاقتصادية وتوزيع الثروة الوطنية على أساس عادل.

هذا وقد أصدر الحزب صحيفة أسبوعية باسم "اللواء الطرابلسي " وعهد برئاسة تحريرها إلى الأستاذ عثمان القيزاني.

في الفصل الحادي عشر :"**الأسرى الإنجليز لدى رمضان السويحلي** (ص274-286)"

يسرد المؤلف قصة وقوع شابين، بريطاني وكندى، أسرى لدى حكومة مصراته في يوليو 1917 فأحسنت معاملتهما. سمحت لهما الحكومة بالتجول في الأسواق ومنحتهما بيتا

يقيمان فيه بدل وضعهما في السجن. لقد استغل رمضان الحادثة وخاطب الحكومة الانجليزية يطلب اعترافها بالجمهورية الطرابلسية في رسالة سلمت للوفد الذي جاء لاستلام الأسيرين.

في الفصل الثاني عشر : **ذهاب رمضان إلى بني وليد (ص287-304)** يسرد المؤلف ويجمع الآراء حول السبب أو الأسباب التي أدت إلى ذهاب رمضان إلى عبد النبي بلخير في بني وليد.

لماذا اختلف الزعيمان رمضان السويحلي وعبد النبي بلخير ؟ هناك آراء عديدة حول الموضوع تتعدى العشرة: ابن عبد النبي بلخير له رأي، والمجاهد مصطفى الجزائري له رأي آخر، وكما أن السفير البريطاني في روما آنذاك (شهر يونيو 1920) له رأي، فإن لأطراف أخرى آراء. سوف لن أنقل أيّاً منها وأنصح القاري المهتم بقراءة هذا الفصل في الكتاب للتفاصيل التي يحويها ولتنّوع المصادر التي اعتمد عليها المؤلف.

في الختام

هذا كتاب مهم، يفوق جودة ما سبق أن كتب عن رمضان السويحلي، كواحد من رموز المقاومة الليبية ضد الغزو الإيطالي، لكن الكتاب في حاجة إلى اعادة نظر في بعض "مفاهيمه ورؤيته "، ومصطلحاته. **المفهوم الأول** : الاصرار من المؤلف على أن المؤرخين الوطنيين كانوا أقل إنصافاً وأكثر تحاملا من المؤرخين الطليان، هذا مفهوم غير صحيح إذ لا يكاد يخلو كتاب في التاريخ من معلومات عن رمضان السويحلي وباقي رموز المقاومة، ويكفي القول أنهم كانوا من قرأ عنهم طلبتنا في كل مراحل التعليم بما فيها المرحلة الجامعية، وفي كل المراحل التاريخية منذ الاستقلال حتى هذه اللحظة. يبدو أن مؤلف الكتاب لم يكن مطلعاً بما فيه الكفاية على الكتب المستعملة في مادة التاريخ خاصة في المرحلة الجامعية. **المفهوم الُثاني:** قول المؤلف بأن السلطات السياسية الإيطالية، وكذلك السلطات السياسية زمن العهد الملكي، وفي زمن القذافي

وصفوا السويحلي بسوء. ما الغرابة في أن يصف الساسة الإيطاليون السويحلي بسوء؟ ألم يصنّفوه عدوّهم الأول في مراسلاتهم ووثائقهم؟ وما الغرابة في أن يصف القذافي السويحلي بالسوء كذلك ؟ القذافي ذكر السويحلي بسوء وبدون دليل لأسباب سياسية، القذافي كان يكره كل ليبي متميز في أي مجال، وقد عرفنا أخيرا أنه أنشأ إدارة لمحاربه "النجومية " أما عن العهد الملكي فلم أجد شخصيا نعوتا سلبية ضد رمضان السويحلي من "السلطات السياسة في العهد الملكي " التعميم سيئ خاصة أن المؤلف لم يذكر أمثلة عن هذا " التحامل"، ولم يذكر اسماً واحدا ممن يصفهم بالمؤرخين الوطنيين.

المفهوم الثالث: سعى المؤلف إلى تبجيل رمضان السويحلي: جميعنا يحب أبطاله ورموزه، ولا أحد يستطيع الطعن في السويحلي، أو في أي رمز من رموز المقاومة الليبية إلا متكبر وظالم، هّم المؤلف تبجيل رمضان في كل الأحوال إلى درجة أنه أساء عندما كان يعتقد أنه جاء بالحقيقة. سأعطي الأمثلة التّالية المأخوذة من الكتاب :

1. المؤلف يقرر ويقبل أن رمضان، وأخاه أحمد قتلا " أبا القاسم المنتصر" ليدّلل بذلك على رفض رمضان للظلم ووقوفه مع المظلومين، رغم أن المحكمة في جزيرة رودس، حيث حوكم الاثنان، برأتهما لعدم كفاية الدليل. كان على المؤلف أخذ ما وصلت إليه المحكمة.
2. ينقل المؤلف أحاديث ظاهرها تبجيلٌ لرمضان لكن معناها الدقيق غير ذلك.. النص الذي نقله المؤلف عن غرزياني يبيّن الفكرة :

"لقد كان (يقصد رمضان) أثناء الحرب الايطالية التركية بفضل شجاعته وميلة الغريزي للقتال، قائدا بين قادة المحلات المرموقين". ص64 صاحب هذا النص – غرزياتي – وإن اعترف لرمضان بالشجاعة والأقدام إلا أن القول بـ "ميل (رمضان) الغريزي للقتال " هي سّبة في طرق التفكير الأوروبي (الايطالي). لقد نقل المؤلف نصًّا دون أن يدرك معناه الحقيقي. **المفهوم الرابع : حصر دور رمضان في مصراته** : في إطار مفهوم التبجيل الذي أشرنا

إليه، يصر المؤلف على أن كل شيء فعله رمضان، وكل شيء مصراتة، حتى إنه سجل بعض المشاركين من أبناء مصراتة في معركة القرضابية، ولم يسجل أحدا من الآخرين (ص107–112). القرضابية معركة وطنية، ورمضان ذهب هناك زعيما لكل المجاهدين من المناطق التي صارت تشكّل حكومة مصراتة (1915–1922) ولم تكن لرمضان هذه الرؤيا المحلية.

قلت إن القرضابية معركة وطنية لكنها عند المؤلف مصراتية قيادة، وإدارة، ووزراً، ذكر كيف أن الطليان انتقموا من هزيمتهم في القرضابية بقتلهم أو سجنهم، وتعذيبهم الكثيرين من أبناء مصراتة، لكن لم يشر إلى معاناة غيرهم.

وتتضح هذه الرؤية المحلية في أن المؤلف حريص على إضفاء الشكر على كل شيء من مصراتة إلى درجة أنه أحيانا يخطيء الاستدلال : ذكر المؤلف أن جورج ريمون الذي زار في عام (1912) مصراتة أعجب بأعضاء مجلس البلدية : كانوا يرتدون أردية وملابس فخمة جميلة، فكانوا من الأبهة وحسن النظر إلى حد يفوق ما يمكن للمرء أن يشهده بالنسبة لأعضاء مجلس بلدي في إحدى المدن الفرنسية الصغيرة " ص131.

النص يتحدث عن 1912، أي قبل بروز رمضان السويحلي زعيماً، بثلاث سنوات وكان جورج ريمون يتحدث عن "الغرائب" ولم يكن يثني على أداء أعضاء المجلس، ولكن على لباسهم.

المصطلحات: أغلب المصطلحات التي وظّفها المؤلف تتناغم ومفاهيمه ورؤيته جميعها غارقة في المحلية:

- " دولته (رمضان) الجديدة"
- "رجال السويحلي"
- "مجاهدي مصراتة"
- قوات رمضان.

- جماعة التواتي
- مجاهدي صفى الدين السنوسي.
- رجال رمضان.
- قوة رمضان العسكرية.

أعتقد أن هذا ظلم صارخ لرمضان الذي لم يكن يوما محلي النظرة، كان ينظر إلى ليبيا ككيان واحد، ويشاركه ذلك سليمان الباروني ومحمود فرحات وعبد النبي والمريض: لم تكن النظرة المحلية في ذلك الجيل موجودة، لقد تجسدت النظرة المحلية كحراك سياسي في ليبيا على يد الطليان الذين أتقنوا سياسة "فرق تسد" واقتصرت خلافاتهم في الأغلب الأعم قبل ذلك على الموارد دون غيرها.

تتضح نظرة السويحلي غير المحلية في الإدارة الحكومية التي تشكلت في مدينة مصراتة وعمت مناطق زليطن، والساحل، وريف الخمس، والقربوللي، وقصر خيار، **كانت إدارة وطنية بيروقراطية منظمة حتى بمعايير اليوم،** لقد شملت إدارات للشؤون الإدارية، والجيش والأمن، والمالية، والقضاء، إضافة إلى تواصل وعلاقات خارجية مع كل من بريطانيا، والدولة العثمانية وألمانيا، والنمسا، والمجر، شملت تلك العلاقات تعاملا في شؤون الأسرى، وتبادلا اقتصاديا في صفة تصدير لمنتجات المنطقة الزراعية والحيوانية إلى ألمانيا وحليفاتها. تتضح كذلك في استعداد تلك الإدارة وقبولها الاندماج في إدارة أوسع هي الجمهورية الطرابلسية التي كان رمضان من أوائل من أيد فكرتها. كما تتضح في وجود محاكم شرعية في حكومة مصراتة، وعدم وجود قضاء وضعي، وفي وجود مجلس علمي يعمل بمثابة محكمة استئناف ومحكمة عليا بمصطلحات اليوم. وتتضح الرؤية غير المحلية في نظام التوظيف الذي شمل أفرادا من كل مناطق سلطة الحكومة. وأخيرا تتضح في التوثيق الجيّد – على ما يبدو – لنشاطاتها ومجمل أعمالها. مكان رمضان يوقّع بصفته "متصرف لواء الخمس" ثم بـ "خادم الملّة

الإسلامية " من هنا فإن الرؤية المحلية ظلم لرمضان السويحلي إذ لم يكن يحملها، كما لم يكن يحملها غيره من الزعماء وإلا ما كانوا ليقيموا جمهورية.
من أين جاءت الفكرة – إذن– أن رمضان السويحلي (وكذلك باقي معظم قادة حركة المقاومة) جهويون؟

يبدو أن الفكرة ترسّخت بفعل كتابات مؤرخين "هواة" كتبوا عن الماضي من الذاكرة، إذ لم تكن لديهم المصادر التي صارت معروفة فيما بعد، ولم تكن لديهم طرق البحث أو التحّقق، مدفوعين في الأساس بمعتقداتهم وآرائهم الشخصية، ومدفوعين كذلك (من حيث لا يدرون أو يدرون) من خصوم حركة المقاومة كان هؤلاء الخصوم يسعون إلى التقليل من مكانة القادة، والحصول لأنفسهم على حصّة الأسد من السلطة في ليبيا المستقلة ليس من باب الصّدفة أن العائلات التي لم يشترك رؤساؤها في حركة المقاومة، أو التي كان لها رأي يتوافق مع القيادة السنوسية في الفترة (1917–1951) هي التي حصلت على غالبية الوظائف القيادية في المجتمع والدولة [رؤساء وأعضاء مجالس الوزراء (1951–1963) والمعّينون في مجلس الشيوخ، ومعظم أعضاء المجالس التنفيذية في الولايات، ومعظم ولاة الولايات، وقيادات الشرطة والجيش] إذ استخدم الملك إدريس في اختيارهم ولاءهم له، ولم تكن عائلة السويحلي من بين هؤلاء كما هو معروف، لقد برز تراث الصراع القديم الذي ظهر بين رمضان وبعض من قادة السّنوسية (صفي الدين وأحمد التواتي) بعد معركة القرضابية، فنعتوه بالإقليمية، وسخروا أقلاماً ليبية وغير ليبية لهذا الغرض، وكانت أنجع التهم آنذاك رمي الشخص بالجهوية وبالإقليمية لأن مزاج عموم الليبيين كان في صالح الوحدة (المظاهرات ضد شروع بيفن– سفورزا)، ثم بروز حزب المؤتمر بقيادة بشير السّعداوي، وجمعية عمر المختار بقيادة بن عمران، وابن عامر. أكرر القول أن نعت رمضان السّويحلي بالجهوية ظلم له فهو لم يكن يحملها كما لم يكن يحملها غيره من القادة وإلاّ لما كانوا ليقيموا جمهورية كما سبق القول.

وفي الختام، أحيي مؤلف الكتاب، السيد صلاح الدّين عوض السويّحلي، على جهده الكبير وسعيه الدؤوب (1969–2014) إلى الوصول إلى الحقيقة، وأسأل الله له الرحمة إذ علمت – وأنا أكتب هذا العرض– بانتقاله إلى رحمة الله. جازاه الله خيراً على محاولته تبيان الواقع، وأسكنه الله فسيح جناته.